هنري حاماتي

العروبة علمياً

1999

أُهدي هذا المبحث إلى سيادة الرئيس بشار الأسد ، رائد الاصلاح والتطهير والتحديث، تذكيراً بأن العروبة كانت باثنين: منظومة قيم روحية عليا، وسلطة سياسية قدوة قائدة جسدتها ...

بحب

هنري حاماتي

محاضرة أُلقيت في دير الزور وفي حماه السقيلبية، في 20 و 1999/10/22 ، بدعوة من مديرية الثقافة فيهما.

الناشر

انطون ابو سليمان

1 ـ **ليست العروبة هوية فكر:** هي ليست نظرية بلغها العقل بأحد مناهجه. وهي ليست منهجاً فلسفياً اصطنع منه أصحابه فكراً اجتماعياً سياسياً أنتج سياسة أو ستراتيجيا.

أنت عروبي؟ فهذا لا يعني انك صاحب اتجاه فكري يميزك.. أو يُعرِّفُ بك...

عروبتنا واقع، فهي موضوع معرفة، لا موضوع إيمان.

وككل واقع نعالجه بالعقل ووسائط المعرفة، تكتسب العروبة بالمعالجة العقلية الصارمة قيمة الحقيقة... فتأخذ مكانها، في مراتب وعينا، مع سائر الحقائق الانسانية الاخرى، تحت سلطان العقل؛ تحت هيمنته!

العروبة ليست ايديولوجيا ينحد وجودها في نطاق جماعة آمنت بها: كالماركسية، والوجودية، والشخصانية... فتظاهرت في أساليب تفكيرها، وانماط نشاطها، واشكال سلوكها...

هي ليست صنعة فكر، أو كشف علم...

2ـ **وليست العروبة هوية جنس:** ليست هوية عرق!

فالعرق العربي الخالص لم يكن موجوداً، حتى في الجزيرة العربية نفسها، منذ أن انقرضت ـ على ما تقول الروايات ـ العرب العاربة، وحلت محلها العرب المستعربة.

العرق العربي الخالص لا وجود له، أصلاً، إلا في التصورات القبلية البدائية العقيمة التي ابتكرت شخصية «قحطان» الخرافية، رمزاً للقحط، ورأس سلالة له.. واختلقت، مقابلاً له، شخصية «عدنان» الخرافية، رمزاً للخصب، ورأس سلالة له..

«العرب المستعربة» ـ أو ما يدعى هكذا... ـ أمزجة سلالية عدة استعربت، لا عرق واحد خالص! وهم، في كل حال، لم يكونوا عرباً خلصاً في الأصل، في صورة ابناء خرافة «قحطان» في أذهاننا.. بل اكتسبوا الهوية العربية من استعرابهم.

ولو انهم عرب في الأصل، فما حاجتهم إلى الاستعراب ليتعربوا؟!

وكل شعب من الشعوب العربية مزيج سلالي، تكون عبر الزمن من أقوام عدة امتزجت: هكذا. السوريون مزيج سلالي، والمصريون مزيج سلالي، وأهل المغرب مزيج سلالي، وأهل الجزيرة مزيج، وأي مزيج...

بل كل شعب في العالم مزيج، ولا وجود للاعراق الخالصة إلا جهالات في أذهان الجهال، أو عقائد خرقاء في أذهان بعض العنصريين المجانين من أمثال شوفين (Chauvin) الفرنسي الذي كانت الشوفينية على اسمه، أو من أمثال هتلر الالماني الذي زعم أن الالمان عرق آري خالص...

العروبة ليست هوية جنس، أو عرق، أو سلالة.. ولو كانت كذلك، كانت تكون باطلاً... وما هي بباطل!

3ـ وليست العروبة هوية جغرافيا:

تنسب الجماعات ـ الامم إلى الجغرافيا، فنقول: أهل فرنسا فرنسيون، وأهل إيطاليا ايطاليون، وأهل المانيا المان.. وأهل سورية سوريون!

وحين نقول نحن عرب ـ ونحن العرب قبل غيرنا، يقول سعاده ـ لسنا نحتاج ـ لا تحتاج عروبتنا أن نصطنع لها جغرافيا على اسمها، فننحت لها وطناً ندعوه «الوطن العربي»! فالأوطان العربية لها اسماؤها و«الوطن العربي» لا اسم له!

وحدهم أصحاب الهوية العرقية، يصطنعون أوطاناً يدعونها باسم عرقهم، أعني باسم انتمائهم العرقي، فيسمون الجغرافيا باسم العرق ـ يَسِمون الجغرافيا بميسم العرق ـ بعد أن يستولوا عليها، اعتداء وسلباً واغتصاباً.. وحولنا، بل عندنا، على أرضنا السورية المقدسة، مثلان واضحان، أليمان، موجعان، حقيران: اليهود والترك.. جماعتان استلبتا الجغرافيا، ونزعتا عنها اسمها الأصلي، سوريتها، ودعتاها باسمي عرقيهما: تركيا... واسرائيل...

حاشى ان يوصم الفتح العربي بوصمة العرق، وصمة الاغتصاب والاستلاب، وهو الذي حرر بلادنا من الاستعمارين الرومي والفارسي، وحمل إلينا وإلى سائر شعوب الارض الهدى: حقاً، وعدلاً، وإخاءً، ورحمة، ومكارم أخلاق...

4ـ وليست العروبة هوية ثقافة:

في العالم ثقافة انسانية عامة واحدة، نحن مؤسسوها وبناة مداميكها

الأولى.

نعني بالثقافة الانسانية العامة مجمل مآتي المجاهيد الحضارية التي أوصلت حضارة الانسان حيث هي اليوم.

هذه الثقافة الانسانية العامة لم تكن صنعة أمة واحدة، أو قارة واحدة، بل اسهمت امم عدة في صناعتها، وفي طليعتها سورية، مهد الحضارة الانسانية.

نحن نعلم اننا متخلفون عن ركب الثقافة الانسانية العامة، فليست عروبتنا ظاهرة تقدم ثقافي، أو حاصل تطور ثقافي، لا نستطيع ادعاءهما...

نعم، لكل شعب من شعوب العالم خصوصية ثقافية/ خصوصية تراثية، خاصة به.

وهذه الخصوصية التراثية، عندنا كما عند الآخرين، يعظم قدرها بنظر أصحابها بنسبة تخلفهم عن ركب الثقافة الانسانية العامة.

كل انتاج ثقافي قابل للتأنسن يتعولم!

كل انتاج ثقافي يحمل في ذاته بُعداً حضارياً، يصبح جزءاً من الثقافة الانسانية العامة.. وبموجب هذا الناموس العام تعولمت معظم مآتي الحضارة السورية، فصارت جزءاً أساسياً من حضارة الانسان، واستبقينا لأنفسنا بعضاً من خصوصياتنا التراثية الصغيرة المتخلفة، حافظنا عليها خلال سكوننا الدهري وجمودنا القهري.

اننا نقرأ هويتنا الثقافية الحقيقية في تاريخ ما اسهمنا به في حضارة الانسان، اعني ما تعولم من انتاجنا الحضاري، لا في هذه الخصوصيات

التراثية التي لا قيمة لها.

والثقافة الانسانية العامة التي تابعت سيرها الصاعد، بعدنا، اثناء نومنا الالفي، هي المعيار الحقيقي للتقدم والتخلف، لنا، ولشعوب العالم قاطبة: كل هذه الثقافة الانسانية العامة، بكل عناصرها، ومظاهرها العصرية، الحاصلة من مغامرة العقل الانساني في الوجود.

في العالم العربي خصوصيات تراثية صغيرة، تتمثل في كل ما لم يمكن أن يتعولم من نتاجنا الحضاري، هي تراثيات ذات قيمة شبه لاغية، لا يجدينا بل لا يغنينا تضخيم أمرها، بخداع ذاتي، للتعويض بها عن تخلفنا الثقافي الذي يجب أن يمثل لنا التحدي الاعظم لوجودنا وجدارتنا.

هذه الخصوصيات التراثية الصغيرة ليست هي مقوم عروبتنا، لأن العروبة، لم تكن، تاريخياً، نتاج تخلف ثقافي.

والعروبة ليست اليوم هوية ثقافة متخلفة.

ولا يتكلمن أحد عن الآمال، والأحلام، والاطماح، والارادات، أياً كانت صورها وأشكالها وأبعادها... فهذه لا يعول عليها إذا كانت إفراز تخلف... وأقوى ما تكون الاحلام، والآمال، والأطماح والتوثبات الخيالية الذهنية، حين تكون تعويضاً عن عجز، أو نوبات حمى مرضية!

5ـ **وليست العروبة رابطة اقتصاد**، فالعالم العربي متخلف اقتصادياً بحكم تخلفه الثقافي.

أوروبا، اليوم، تقدم لنا أجمل مثل لمفاعيل تطور الثقافة، وأبرزها الروابط الاقتصادية، ومقتضيات الانتاج الفكري الصناعي الحديث.

والوحدة الاوروبية، أو النزعة الوحدوية الاوروبية ـ التي انتجت

البرلمان الاوروبي ، والمؤسسات الاوروبية الحديثة ذات السلطات الاجرائية الآخذة بالتطور نحو تكوينات سلطوية اقليمية قارية ... هذه «الأوْرَبةَ»، التي باتت المعلم الأبرز للفكر السياسي / الاقتصادي / الاجتماعي للشعوب الاوروبية ولدولها القومية .. هذه «الأوْرَبة» هي رابطة اقتصاد، وهوية اقتصاد....

وأما عندنا، فرغم تخلف بؤرنا الانتاجية، وثقافتنا العلمية المادية، ورغم هزال علاقات الانتاج بين المجتمعات العربية، وشعوبها، فان العروبة، عروبة الناس، عروبة الجماعات، عروبة المواطنين هنا وهناك وهنالك... هي واقع حي، نشاهده، ونلمسه، ونسمعه، ونحسه، وذلك أن العروبة ليست رابطة اقتصادية، أو هوية اقتصاد.

6ـ **وليست العروبة هوية سياسة**، وحين نقول سياسة نعني الدولة، المظهر الحقوقي السياسي للجماعة، ونعني مؤسسات سياسية ترعى مصالح الناس وتنظم حياتهم، ونعني سلطات سياسية تجمع الجماعات حين تخضعها لحكمها.

منذ سقوط الدولة العباسية، افتقدت الشعوب العربية جامعاً سياسياً يجمعها، وافتقدت حريتها السياسية، وخضع عالمنا العربي للاستعمار ألف عام... بل خضعت ديار العرب لألوان من الاحتلالات الاستيطانية، كالترك لسورية، والفرنسيين للمغرب، والفرس لعربستان (الاحواز) واليهود لفلسطين، وخضعت بلاد العرب للاستعمار البريطاني، فخلفه الاستعمار الاميركي... وتجزأت ديار العرب إلى دويلات صغيرة، في المغرب كما في المشرق، دويلات على اسم جبل كلبنان، أو نهر كالاردن، أو ما بين النهرين كالعراق، أو على اسماء مدن، كتونس، والجزائر،

ومراكش...

من زمان،إذن، اختفت الدولة المركزية الجامعة من عالمنا العربي: اختفى العامل السياسي، المقرِّب، الموحد، منذ ألف عام وأكثر... ولكن العروبة بقيت حقيقة راهنة، وثابتاً من ثوابت الوجدان في الشعوب العربية.

بل ما يتعدى هذا: لكل مجتمع من المجتمعات العربية همومه، ومشكلاته وقضاياه... وقد نتعرف إلى تمايز المجتمعات العربية من خلال تمايز همومها ومشكلاتها وقضاياها... ومن خلال تمايز سياسات دولها المقيدة بهمومها ومشكلاتها وقضاياها...

ولقد تصادمت مصالح العرب فتعارضت سياساتهم، حول أقدس ما تكون الحقوق، وأوثق ما تكون المصالح ، وأخطر ما تكون المصائر: سلاماً مع أعدائهم أو حرباً، وقبولاً بأحكام شرعية دولية هي منطق نئب، أو رفضاً، وإذعاناً للهيمنة الاميركية القابضة على القرار والزمن والمصير، أو انتقاضاً.. فالسياسة ليست اليوم، ولم تكن يوماً عاملاً جامعاً موحداً، بل هي اليوم، عامل مفرق ومفتت وممزق... ومع هذا بقيت رابطة العروبة رابطة جامعة، وستبقى رابطة جامعة للشعوب العربية لأن العروبة ليست هوية سياسة.

وبعد،

السياسة، في هذا العالم المنظم المعولم، هي سياسة مصالح واقعية اساسها الاقتصاد.

فكما لم تكن العروبة هوية اقتصاد، لم تكن هوية سياسة.

نعم، الاقتصاد المتطور يصنع روابط وحدة، داخل المجتمع الواحد وبين المجتمعات المتقاربة جغرافياً، وتباعاً واستطراداً، بين مجتمعات العالم كله، لأنه يمد داخل المجتمع الواحد، كما بين المجتمعات المتقاربة، شبكة علاقات انتاجية تكون هي المقوم الحياتي الواقعي للوحدة القومية داخل المجتمع الواحد، وللوحدات الاقليمية أو القارية بين المجتمعات.

وعندما يدرك الوعي السياسي، أو الوعي الجماعي المصالح الحيوية الواقعية التي قررها التطور الثقافي الاقتصادي، تصير الوحدة القومية، أو الوحدة القارية، مطلباً، بعد أن تصير موجباً تقتضيه مصالح الناس.

هكذا، أصلاً، بالتطور الثقافي الاقتصادي، استكملت كل أمة من الأمم الاوروبية وحدتها القومية في الماضي، وهكذا، تباعاً، بنواميس العوامل الثقافية الاقتصادية المتطورة نفسها، تستكمل الامم الاوروبية وحدتها القارية اليوم، في جامعة متحدات قومية متمايزة، مكتملة الشخصيات.

قبل هذا العهد، قبل التطور الثقافي الاقتصادي الداخلي، كانت فرنسا حوضاً باريسياً وملحقات، وكانت المانيا امارات تعد بالعشرات، وكذلك، قبل الوثبة الخطيرة التي حققها التطور الثقافي الاقتصادي، خلال نصف القرن المنصرم، كانت أوروبا حروباً طاحنة بين الفرنسيين والالمان والآخرين... حروباً مازلنا نسمع أصداء فظاعاتها، ونشاهد صوراً من مجازرها، حتى الآن.

7. في العالم العربي، نحن نعيش في زمان هذه «القبل».

- في مصر (السودان)، مشكلة الامن الاجتماعي (الغذائي).
- وفي السعودية (المشيخات) مشكلة الامن السياسي (العسكري).

ومن خلال هاتين المشكلتين الدائمتين، نفهم معركة مصر الناصرية مع الغرب، على ترعة السويس (1956)، بوصفها مرفقاً حيوياً اقتصادياً لمصر، والحصار الاقتصادي الغربي على مصر الناصرية، لإعاقة بناء السد العالي، بوصفه ضرورة حيوية للتنمية... ومعارك مصر الناصرية ضد عملاء الغرب في الاقطار العربية، واتجاه عبد الناصر نحو الشرق...

كانت تلك ستراتيجيا تهدف إلى تحرير مرافق البلاد، وإنماء الانتاج، لتأمين الكفاية الذاتية، وضمان الاستقلال السياسي، إذ لا حرية سياسية دون حرية اقتصادية.

وكانت هذه الستراتيجيا تقتضي معارك سياسية مع الغرب، ومعارك عسكرية مع قواعده السياسية من أنظمة وعملاء، داخل الأقطار العربية.. الأمر الذي قسم العالم العربي إلى محورين، مع ناصري وضد ناصري، تمركز الأول في القاهرة، وحولها، الجمهورية العربية المتحدة، وتمركز الثاني في الرياض، وحولها، الحلف الاسلامي.

وكان دور مصر الناصرية في اليمن النموذج الاوفى تعبيراً عن مخاطر السياسة الناصرية على مصالح الغرب، وعلى مصالح الدول القائمة فوق آبار النفط...

من جهة السعودية (المشيخات) كل شيء ممكن معها حتى حدود أمنها السياسي (العسكري) الذي يؤلف، كما شاهدنا أمس، ونشاهد اليوم، جزءاً لا يتجزأ من الأمن الستراتيجي الغربي..

فمشكلة الأمن السياسي (العسكري) للسعودية (المشيخات) هي مقرر السياسة العربية السعودية، دولياً، وعربياً، شروطاً وحدوداً، ونحن مدعوون إلى اعتبار مقومين اثنين يتألف منهما هذا الامن: أمن النفط، وأمن الأنظمة العربية القائمة فوق آبار النفط.. وكلاهما جزء من

الأمن الستراتيجي الانكلوسكسوني الغربي...

والحقيقة التي علينا أن نقاربها بجرأة هي أن المشكلتين اللتين أخذناهما هنا مثلاً لتعارض المصالح العربية هما مشكلتان اساسيتان ثابتتان للمجتمع المصري وللمجتمع العربي في الجزيرة، لا للأنظمة السياسية والحكومات.. وحسب..

فهكذا تعارضت سياسة الثورة المصرية مع سياسة الانظمة النفطية، وهكذا، استطراداً، تعارضت سياسة مصر اللاناصرية مع سياسة الصمود والتصدي التي قادتها دمشق... فانسحبت مصر من معتركنا القومي مع اسرائيل، وصالحت العدو، فانفتحت لها كل أبواب العالم المالي، في قروض ومساعدات لا حدود لها، وفي طليعتها أبواب البنك الدولي، والمجموعة المالية الدولية التي انشئت خصوصاً لدراسة مشاريع مصر الانمائية وطلباتها المالية... عدا العطايا والهبات، وتدوير الحسابات... والقروض الضخمة، الطويلة الأمد، العديمة الفوائد تقريباً.

ولقد قبلت مصر اللاناصرية المساعدات تحت شعار حاجتها إلى المال لتطوير امكاناتها الانتاجية، وتأمين كفايتها الاقتصادية، كضرورة أساسية لاستقرارها السياسي، وإيجابية سياستها بالنسبة إلى المصالح الدولية الهامة في الشرق الأوسط..

وأهم هذه المصالح، النفط..

وبهذا، تلاقت مصالح مصر والسعودية، على مصالح واقعية حيوية مشتركة، بعد تعارضها في زمان الثورة الناصرية... فتلاقت سياسة الطرفين في سياسة واحدة مرتبطة كلياً بالستراتيجيا الغربية.

8ـ ماذا نريد أن نقول من مثل تعارض المصالح العربية الواقعية وتلاقيها، في السياسات العربية الرسمية؟

نريد أن نقول أمرين:

الأول أن الفكر السياسي الذي يغفل المصالح الواقعية، هو فكر عاطفي رومنسي أحد أبسط مفاعيله الاحباط، والزواغ.

والثاني ان هموم المجتمعات العربية ومشاكلها وقضاياها هي معضلات للفكر السياسي في العالم العربي: معضلات شكّلت أزمات تناقضات عربية فعلية بلغت حد الصدام. ولم يكن في مقدور العروبة، كعامل جامع، الحد منها، أوتلافيها... كما لم يكن بمقدورها هي، أعني بمقدور هذه الأزمات، أن تنفي العروبة وتلغيها.. وذلك لأن العروبة ليست ـ لا في مستوى الشعوب، ولا في مستوى الحكام، ولا في مستوى الجامعة العربية ـ، قاعدة ثابتة متعارفاً عليها من قواعد الفكر السياسي العربي، رغم انها بقيت، في الوقت نفسه، حتى في أحلك ظروف التناقضات العربية، رابطة شعبية مقدسة يؤكدها العرب في كل مكان...

فالفكر السياسي يعنى بالمصالح، فقط!

وتعارض السياسات هو من تعارض المصالح...

في غاية حزبنا، والمادة الأولى في دستورنا، «**السعي إلى إنشاء الجبهة العربية**». فالجبهة العربية، في فكر سعاده، هي جزء هام من ستراتيجيته القومية، وبها، ترتفع العروبة، من مستوى الرابطة العاطفية القيمية بين الشعوب العربية، إلى مستوى القاعدة السياسية الثابتة في الفكر السياسي القومي: إلى مستوى الالتزام السياسي القومي.

ولكن الفكر القومي الاجتماعي لا يعمى عن المشكلات والوقائع والمصالح والضرورات والشروط والظروف، وهو، لذلك، يدرك أن دور المجتمع السوري في العالم العربي سيبقى مرتبطاً بقدرة هذا المجتمع على مساعدة العرب والدفاع عنهم، بعد أن يثبت مفهوم عروبة الالتزام، فحين «تصبح سورية قوية في ذاتها» (سعاده) تستطيع أن تخدم المصالح العربية، وأن تدافع عنها.

والواقع الراهن لا يسمح لنا، نحن السوريين، أن نزعم أن بإمكاننا التزام المصالح العربية، والمساعدة في حل المشكلات العربية.

لا يستطيع المجتمع السوري اليوم أن يسهم في حل مشكلة الامن الغذائي في مصر (السودان)، ولا أن يساعد في صنع أمن سياسي (عسكري) لأهل الجزيرة العربية، شعوباً وشيوخاً.

بل إن الواقع الراهن يقدم لنا حالة معاكسة تماماً، تنافي كلياً امكان تطبيق مفهوم الالتزام العربي، أو تحقيق العروبة كقاعدة من قواعد الفكر السياسي القومي.

فإزاء مشكلة الأمن الغذائي في مصر (السودان) ومشكلة الامن السياسي في السعودية (المشيخات)، يرزح المجتمع السوري تحت مشكلاته الذاتية الأربع: الاحتلالات الاستيطانية الثلاثة، لليهود والفرس والترك، والتجزئة السياسية، والتمزق الاجتماعي النفسي (المذهبي التراثي العرقي)، والتخلف الثقافي الاقتصادي.

هذه المشكلات كانت مشكلات لنا، وكانت عبئاً على العرب، ونحن لا نستطيع أن نزعم اننا قادرون على التفكير في مساعدة العرب، في مشكلاتهم الكبرى، كما أننا بتنا نفهم الآن، وكان يجب أن نفهم هذا من

قبل، اننا لا نستطيع أن نطلب من مصر والسعودية مساعدتنا في تحرير بلادنا من الاحتلالات، وتوحيد كياناتها السياسية (كيانات سايكس بيكو) في دولة مركزية واحدة، وحل مشكلة تمزقنا النفسي الاجتماعي، ودفعنا في مراقي التطور الثقافي الاقتصادي.

فمثلاً، لو أن السوريين أرادوا اليوم تحرير منابع دجلة والفرات من الاحتلال التركي - حتى لا نتابع في اجترار الكلام عن تحرير فلسطين من الاحتلال اليهودي - فان مصر والسعودية لن تكونا قادرتين - وهما المقيدتان بالستراتيجيا الانكلو سكسونية - على مجرد التصريح بتأييدنا في حقوقنا المشروعة في أرضنا المحتلة ومياهنا المسلوبة... فكيف بالوقوف إلى جانبنا موقفاً يمليه مبدأ الالتزام العربي..

ولا نسوق هذا الكلام لننال من عروبة مصر أو السعودية، بل لنؤكد وجوب التزامنا عقلانية الفكر السياسي الذي لا يعمى عن المصالح، ولا يتأسس إلا على الممكنات.

9. إن قيام مجلس تعاون إقليمي في الهلال السوري الخصيب، يحصن كياناته ضد الاختراقات العسكرية الخارجية، ويوجد أساساً قوياً لتطور ثقافي اقتصادي ولقوة عسكرية ضاربة رادعة فيه - وهو مابتنا نقرأه في التوجه القومي للرئيس الأسد في المحاور التي يصنعها بين دمشق وعواصم كيانات التجزئة - ان قيام هذا المجلس هو أول الطريق إلى القوة القومية في سورية: أول طريق النهوض القومي، بالعامل السياسي، إلى تكوين سلطة سياسية مركزية في منطقتنا، تحل مشكلات مجتمعنا، وتعد نفسها لمساعدة المجتمعات العربية في حل مشاكلها!

وقبل أن نكون قوة لأنفسنا، كيف نستطيع أن نكون قوة للعرب؟

وقبل أن نحاول بناء القوة الذاتية في سورية، كيف يحق لنا أن نطلب عون العرب، ودعمهم؟

كيف نفكر في جبهة عربية واحدة، قبل كنس آثار سايكس وبيكو عندنا؟

كيف نفكر في وحدة عربية شاملة، من المحيط إلى الخليج، وننسى وحدة سورية الطبيعية، من زغروس إلى البحر؟

كيف يمكنك أن تعد للمئة، قبل أن تعد للعشرة؟

كيف يحق لنا أن نتكلم عن العروبة / القاعدة ونحن عاجزون عن تحقيقها؟.

وكيف يمكننا المناداة بالعروبة/ الالتزام. ونحن عاجزون عن تطبيقها؟!

نعم، مع الفكر القومي الاجتماعي صارت العروبة قاعدة من قواعد الفكر السياسي القومي، ومبدأ من مبادىء الستراتيجيا القومية الملتزمة بالمصالح العربية...

ولكن، الفكر القومي الاجتماعي لم يصنع العروبة، بل وعاها واقعاً، وصاغها مفهوماً، وجعلها قاعدة من قواعد ستراتيجيته العامة. ألم نقل أن العروبة ليست صنعة فكر!؟.

10ـ فما العروبة، إذن؟ وكيف نعرفها؟

تُعَرَّف العروبة بنشأتها:

هي حاصل فعل تاريخي واحد قوامه ظهور قيادة جديدة في الحجاز تمثلت في النبي العربي الكريم محمد بن عبد الله (ص) والخلافة الراشدة:

قيادة جديدة تميزت عن كل القيادات السياسية في التاريخ كله

بمقومين اثنين متحدين هما مقوم الامامة القيمية الروحية، ومقوم السلطة السياسية، في وقت واحد.

في مبادرة مقاربة أولى لذاك الحدث التاريخي المزدوج الفذ، أقول إن ما أعنيه بالامامة الروحية، ليس الدين ولا الشريعة، أي لا العبادات ولا المعاملات، بل القيم الروحية العليا التي هي غرض الدين والشريعة... فلقد شكلت دعوة محمد (ص) فلسفة اجتماعية جديدة، نظمت حياة الناس وفق قواعد اخلاقية سلوكية تحكمها قيم عليا روحية: الحق، والعدل، والاخاء، والمساواة، والخير، والنفع، والرحمة، والعفو... وسائر مكارم الاخلاق.

وما أعنيه بمفهوم السلطة السياسة هو ذلك الحكم النموذجي الذي لم يكن في تاريخ العالم مثيل له، لا قبله ولا بعده، بالخصائص الخاصة الفردة التي تميز بها، مع محمد وأصحابه الراشدين!

قبل محمد (ص) وأصحابه، ما عرف العالم سلطة سياسية واحدة نشأت بقوة إيمان الناس، وبقوة ارادتهم، أي بقوة الفكر وقوة فعله في العقل والوجدان.

في كل الاقطار وكل العصور، نشأت وتنشأ السلطات السياسية عن قوى راكزة في قلب المجتمع، قوى وضعية اتخذت، عبر التاريخ، أشكالاً عدة، كقوة العصبية الدموية، أو القوة العسكرية، أو قوة الاقطاع الارضي، أو قوة التروستات الصناعية، أو القوة المالية. أو مزيج من هذه القوى...

وما عرف العالم سلطة نشأت بالمبايعة المؤمنة الحرة..

وما عرف العالم - حتى العام 1780، تاريخ أول وثيقة دستورية ظهرت في ماساشوستس، وتاريخ ثاني وثيقة دستورية ظهرت في باريس مع

الثورة الفرنسية، عام 1789 . نقول، ما عرف العالم سلطة سياسية واحدة حكمت وفق قواعد مكتوبة صارت قواعد حكم... قبل النبوة والخلافة!

وكان على العالم أن ينتظر أكثر من أحد عشر قرناً حتى يرتقي إلى فكرة نظام حكم مؤسس على وثيقة خطية تحددت فيها القيم العليا، المستند الاول لفكرة الحقوق: ولست أعني هنا وثيقة المدينة، التي كانت أول وثيقة تاريخية تؤسس لحياة اجتماعية سياسية يحكمها نظام قيم ثابتة في متحد بشري، بل أعني القرآن الكريم نفسه بثوابت القيم الروحية فيه.

ولأول مرة في تاريخ البشر، منظومة قيم تحكم السياسة، وتكون هي غرض السلطة السياسية.

بهذين العاملين مجتمعين . منظومة القيم والسلطة السياسية . قامت الدولة العربية في الحجاز، ثم حصلت الفتوح، فقام عهد الحكم العربي في الجزيرة أولاً، ثم في سورية، فمصر، فالمغرب، غرباً، حتى الاندلس... وشمل شرقاً بلاد فارس، والأفغان، ونواحي من الهند...

11. بهذين العاملين مجتمعين، عامل الأيمان بالقيم الروحية، وعامل السلطة السياسية القدوة، تعممت اللغة العربية في الاقطار، حيث تعممت، فحلت محل أمها الآرامية في الهلال الخصيب، ومحل القبطية في مصر، ومحل الامازيغية في المغرب، وما زالت آثار هذه اللغات باقية إلى يومنا هذا، في بعض النواحي النائية وفي بعض المؤسسات الدينية التراثية...

وكما حفظت المناطق النائية والمؤسسات التراثية آثار اللغات القديمة في سورية ومصر والمغرب، كذلك حفظت البلدان النائية التي بلغتها الفتوح، ودخلتها جيوش المسلمين. لغاتها القومية...

فحكم البلدان النائية عن مركز الخلافة، هو حكم المناطق النائية عن

عاصمتها.. فلم يكن العامل الديني وحده كافياً لانتشار اللغة العربية، وتعممها، وترسخها، فهي لم تتعمم ولم تترسخ إلا حيث اجتمعت عوامل عدة، أهمها مركز الخلافة، ومركز الولاية، وحجم الادارة، ومواقع مراكز الجند، وهي هذه تقرر مقدار تفاعل الفاتحين مع ابناء البيئة التابعة.. علماً أن مجموع العرب المسلمين الذين خرجوا من الجزيرة للفتوح لا يزيد على 300 ألف مقاتل.

بقوة هذه العوامل تعممت اللغة العربية في سورية ومصر والمغرب، وهي لم تتابع تعممها في البلدان الأخرى لضعف هذه العوامل، ووهنها، كلما ابتعدنا عن مركز السلطة السياسية القائدة.. فحيث اختفت هذه العوامل، أو اضمحلت بحادث سياسي معاكس، اختفت اللغة العربية، واضمحلت... كما في مثل الاندلس...

ولكنها في كل مكان حل فيه حكم عربي، تركت اللغة العربية آثاراً هائلة من غنى مفرداتها في لغات الاقوام المسلمة التي حافظت على لغاتها، كالباكستان، والاتراك، والفرس، والافغان، وسواهم.

حتى اللغة الاسبانية اليوم، مليئة بالمفردات العربية..

بديهي، وفق هذ المنطق، أن تكون اللغة العربية وآدابها قد بلغت أرقى ما بلغته في تاريخها في سورية، مركز الخلافة في العهدين الاموي والعباسي: مركز السلطة السياسية والسلطة الادارية والسلطة العسكرية، ومركز العلوم والفنون، ومدارس العلم والفلسفة والفقه، وموائل الشعراء الفحول الذين تستقطبهم القصور.. وأن تكون حالة اللغة العربية في المغرب، على ما أورده ابن خلدون في مقدمته، قد بلغت من الضعف والهزال والوهن مبلغاً قاربت به العجمة... لبعد المغاربة عن مركز الاشعاع الأول، عاصمة الدولة المركزية، في سورية!

وعندما ثار المغرب على الاستعمار الاستيطاني الفرنسي، بعد احتلال استطال150 عاماً، كانت لغة أهل المغرب العربية في حالة زرية، حتى ان قادتهم (فرحات عباس) ما كانوا يحسنون النطق بالعربية.. ومع ذلك، تسجل تاريخياً في مصلحة العروبة حدثان خطيران أساسيان: الأول ثورة المغاربة ضد الاستعمار الاستيطاني الفرنسي، ووقوف المشارقة إلى جانبهم: كل المشارقة، وبعض حكامهم.. والثاني: وقوف المغاربة إلى جانبنا دائماً في قضايانا القومية، هنا في المشرق: كل المغاربة، وبعض حكامهم..

طليعة المغاربة إلى جانب قضايانا القومية، كان الليبيون والجزائريون، فاستحقوا سخط الاستعمار الغربي عليهم، فطوقهم الاستعمار، بالحصار الخانق، وأرهقهم بالمجازر القبلية المشينة.

12ـ العروبة هي ما بيننا نحن السوريين والمصريين والمغاربة وأهل الجزيرة: هذا الثابت التاريخي الباقي من ذلك الحدث التاريخي العظيم، ثابت القيم التاريخية المشتركة وثابت الرابطة العاطفية المشتركة.

ثابت تاريخي لا يحول ولا يزول، أياً كانت مصائب العرب، وأياً كانت أحوالهم.

ثابت تاريخي يلزمنا النهوض إلى مصالحنا، والتعاون، والتآزر.